

# الفصل السادس عشر

## العباسيون

(تابع ما قبله)

١٥٨ - ١٧٠ هـ (٧٧٥ - ٧٨٦ م)

### المهدى والمهادى

— خلافة المهدي — حكمه الفخم — إنسانيته — الزنادقة —  
— الحرب مع الرومان — إيريني تدفع الجزية — وفاة المهدي —  
— خلافة المهادى — انفصال المغرب الأقصى — وفاة المهادى

خلف « محمد » أباه المنصور ولقب « بالمهدى » ، وتنتسب أمه <sup>(١)</sup> إلى أحد ملوك حمير <sup>(٢)</sup> اليمانيين ؛ وكانت سياسته تختلف عن سياسة أبيه كل الاختلاف . إذ كان محسناً كريماً بطبعه ، وقد سارع عند اعتلائه عرش الخلافة إلى رتق الفتق وإصلاح أعمال الشدة والإرهاق التي وقعت في عهد أبيه : فاستفتح حكمه بفك سراح المسجونين عدا القتلة والمتهمين بجرائم خطيرة ، كما أطلق الحسن بن إبراهيم ، وأغدق عليه المنح والعطايا ، وأعاد المدن المقدسة الامتيازات التي كان أبوه قد عطلها ؛ وسمح بإرسال الإعانات التي كانت ترسلها مصر إلى بلاد الحرمين الشريفين ، ورد إلى آل البيت أملاكهم . وكان من عادة « المنصور » أن يفرض الغرم الباهظ من حين لآخر على موظفي الدولة الذين كان يعزلم بهممة الاختلاس أو اغتصاب الأموال ، وكان يحتفظ بها في خزانة خاصة تسمى « بيت مال المظالم » مكتوباً عليها أسماء الأشخاص الذين صودرت منهم ، فأعادها المهدي

(١) واسمها « أم موسى » .

(٢) من ولد ذى رعين من ملوك حمير . (المغرب)

إلى أصحابها أو لورثتهم<sup>(١)</sup> . وكان قد نزل في أثناء حملته على الروم بقصر « مسلمة » ، فتذكر إخلاص ذلك القائد المشهور وعظيم وفائه لجلده « محمد » فطلب أولاده وأجازهم بعشرين ألف دينار ، كما وهبهم الإقطاع والضياع . وفي أثناء حجه إلى مكة عام ١٦٠ هـ أحاط نفسه بضروب الأبهة والفخامة ووزع حوالي ٣٠ مليون درهم على أهل الحجاز ، و ١٥٠ ألف ثوب على أهالي مكة وحدها ، وأعاد بناء المسجد الحرام وجمله ووسع المدارس والجوامع في جميع المدن المشهورة ، كما شيد جوامع جديدة في شتى المدن والحواضر ؛ وانتخب بمهارة تبرز مهارة أبيه ٥٠٠ رجل من أبناء الأنصار ، وألف منهم فرقة الحرس الخاصة<sup>(٢)</sup> ورتب المخصصات للمجدومين والمسجونين . وتقول لنا الرواية إن السفاح كان قد شيد عدة منازل في طريق مكة من القادسية حتى « زباله » ، فأمر المهدي بتعبيد ذلك الطريق وتوسيعه ، وزاد عدد المنازل وأثاثها ، وحفر الآبار والخزانات على طول الطريق إلى المدن المقدسة ؛ كذلك أقام الحراس لحماية الحجيج والمسافرين . وكان أحد أبناء « مروان الثاني » قد حاول شق عصا الطاعة في الشام ، فظفر به وأمر بحبسه ردهاً من الزمن ، ولكنه ما عثم أن أطلق سراحه ومنحه مرتباً كافياً . ويقال إن « مزينة » امرأة مروان وفدت على قصر الخلافة تشكو رقة حالها فأفردت لها « الخيزران » جناحاً خاصاً في القصر تنم فيه بالقرب منها دون أن تفرق بينها وبين نساء بني هاشم ، وكان للخيزران نفوذ واسع على زوجها ولهذا كان بهو استقبالها مزدحماً دائماً بالمعطاء وطلاب الوظائف وأصحاب الحوائج والمأثور عن « المهدي » أنه أقصى « عيسى » ابن أخي السفاح عن ولاية العهد وجعلها لولديه من « الخيزران » موسى وهرون بالتعاقب .

١٥٨-١٧٠ هـ

(١) يقال إن المنصور أوصى المهدي برد هذه الأموال لأصحابها لكي يكتب بهذا العمل قلوب الرعية .  
(٢) لو احتفظ خلفاء المهدي بهذه القوة العربية لما عظم شأن فرقة الحرس التركي ، بيد أن سياسة المنصور التي يظهر أنها أثرت في الخلفاء الذين أعقبوه كانت تدور حول إضعاف شأن العرب الذين كانوا يعدون أنفسهم زهرة فرسان المسلمين .

وفي أيامه ناز «هاشم بن حكيم» الملقب بالنبي المقنع ، وكانت خراسان تعتبر دائماً مرتعاً خصيباً لشتى الطوائف والمذاهب ، وكانت تهبش خاصة في تلك الأثناء بمبدأ جديد يبشر به ذلك الدعى ، وهو رجل ضئيل الحجم كره المنظر ، ولكي يخفى قبح شكله كان يتقنع دائماً بقناع ذهبي ، ولهذا سمي بالمقنع ، ومن تعاليمه أن روح الله تحمل من حين لآخر في أحد عباده المصطفين ، وأنها حلت الآن في شخصه كما حلت من قبل في آدم ونوح وأبي مسلم الخراساني ، وهو يذهب أيضاً إلى أن الديانة هي الإيمان فحسب ، وكانت تعاليمه الأخرى إباحية تدعو إلى التحرر من القيود الأخلاقية فاستهوى جمهوراً كبيراً من الناس حتى عظم شأنه ، فبعث إليه الخليفة بجيش جرار شنت شمل أتباعه بعد أن فتك به .

المقنع  
١٥٨-١٦٦ م

٧٧٥-٧٨٦ م

الزنادقة

وقد كان أصحاب المقنع يلبسون الملابس البيضاء ولهذا سماوا « بالبيضة » ، كما أطلق على فرقة جديدة أخرى في «جورجان» شرق بحر قزوين اسم « المحمرة » لارتدائهم الملابس الحمراء ، وكانوا يدبنون بمبادئ إباحية مفرطة ، وسببوا متاعب جمة للدولة غير أن حركتهم قمت أخيراً دون صمود تذكر . ويظهر أنه كان قد شاع في ذلك الحين مبدأ النهلستية وهو مبدأ يجمع بين المزدكية والمناوية القديمتين . ويقول لنا المؤرخون إن « مزدك » صاحب العقيدة المسماة باسمه ظهر في زمن « كسرى أنوشروان » في القرن الرابع الميلادي ، وأخذ يبشر باشتراكية مطلقة لا قواعد لها ، فاستعمل ملك الفرس الحديد والنار في سحق تلك الفئة الإلحادية دون أن يتمكن من قلع الحركة من أساسها . وفي حكم المهدي أخذت تلك المبادئ الإباحية تمتزج — قليلاً أو كثيراً — بالفلسفة المناوية وتنتشر بسرعة في خراسان ثم في غربي إيران والعراق . ولا شك أنها كانت تبشر بالتحلل من القيود الأخلاقية ، وتعمل على إضعاف سلطة الحكام والخروج على العرف والتقاليد . كذلك كان من جملة الاتهامات التي وجهت إليهم خطف الأطفال من الأزقة والشوارع ، وسواء أكانت تلك التهمة صحيحة أم مختلفة فما لا ريب

فيه أن هؤلاء الملاحدة كانوا يستهترون بالأوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية بادعائهم الطاعة العمياء لشرح المفسرين . ولقد أبدى المهدي حيال تلك الشرذمة — التي كان يعتبرها عنصراً خطراً على سلامة الدولة والأخلاق — قسوة شديدة فنكل بهم شر تنكيل من غير ما شفقة ولا رحمة .

وفي سنة ١٦٣ هـ أغار الجيش البيزنطي على البلاد الإسلامية فعات في المدن المجاورة فساداً وتخريباً ، كما استولى على مدينة « مرعش » فأشعل فيها النار وقتك بأهلها ؛ ولكن ما إن اقترب منهم جيش المسلمين بقيادة « حسن بن قحطبة » حتى تهمقروا من المواقع التي سبق أن احتلوها ، غير أن القائد العربي انتقم منهم انتقاماً شديداً فحرب بعض مدنهم بعد أن نكل بهم شر تنكيل . وفي تلك الأثناء نشبت فتنة جديدة في داخل البلاد استدعت حضور المهدي إلى ميدان القتال بعد أن أناب عنه ابنه موسى في بغداد وسار هو توا عن طريق الموصل إلى مركز الحركة ، وكانت مدينة حلب عندئذ المركز العام للجيش الإمبراطوري ، فعقد القيادة لابنه هرون الرشيد وبعث معه بعض القواد المشهورين كعيسى بن موسى ، وعبد الملك بن صالح ، وحسن بن قحطبة ، ويحيى بن خالد . ولما استولى جيش الرشيد على مدينة « سمالا » وبعض المدن الأخرى ، قصد المهدي بيت المقدس لأداء فريضة الحج ، وولى هرون بلاد الغرب التي كانت تشمل وقتئذ على أرمينيا وأذربيجان ، كما عين ثابت بن موسى وزيراً لبيت المال ، واستوزر يحيى بن خالد . غير أن إغارة الروم حرمت البلاد من التمتع بالهدوء والطمأنينة ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى اجتاحت جيشهم البلاد بقيادة « ميكاميكومس » ، وأطلقوا أيديهم سلباً ونهباً ، فأسرع الرشيد إلى صد زحفهم ، وأنزل بهم خسائر فادحة ، ثم أخذ يواصل زحفه حتى بلغ القسطنطينية ؛ وما إن شاهدت « إيريني » امرأة ليون الرابع — التي كانت تحكم البلاد البيزنطية نيابة عن ابنا قسطنطين السادس ، والتي تعد المحرصة لتلك

١٥٨-١٧٠ هـ

٧٨٥ م

الحرب الشعواء ، أضواء معسكر العرب تسطع على ضفاف البوسفور حتى طلبت عقد الصلح بعد أن منيت بخسارة أخرى ، فأجابها القائد العربي إلى طلبها مشروطا عليها دفع جزية سنوية كبيرة وإقامة الأدلاء والحراس ، وتجهيز الجيش بالمؤونة الكاملة في طريق عودته .

وفي سنة ١٦٨ هـ أضرم عرب البادية نار الثورة في الصحراء ، قهبوا القوافل وأقلعوا عن الصلاة ، وأساءوا معاملة الحجاج ، فبثت الخليفة إليهم بقوة قمت حركتهم في الحال ؛ ولكن يظهر أنه عامل الثائرين بالشفقة والرحمة .

وفي السنة التالية أراد « المهدي » أن يقوم برحلة أخرى في الشرق فأدركته منيته في مكان يسمى « ماسبدان » .

وفاة المهدي  
٢١ محرم  
١٦٩ هـ

وتقول لنا الرواية إنه كان قد نزل في ذلك الموقع ليصطاد ، وفيما كان يتعقب غزالا سقط من على ظهر جواده سقطة مات على أثرها في اليوم التالي ، وعمره ٤٣ سنة بعد حكم لم تطل مدته أكثر من عشر سنوات ؛ وكان طويل القامة ، حسن تكوين الجسم . ويقال إنه استوزر في أوائل حكمه « عبيد الله » ثم عاد واستوزر بعهده « يعقوب بن داود » ، الذي تمت بمشورته معظم الأعمال الجسيمة ، ولكن الوشاة على ما يظهر ظلوا به حتى ارتاب في إخلاص وزيره ، وأمر بزجه في السجن السياسي المسمى « بالمطبق »<sup>(١)</sup> حيث ظل يمش عدة سنوات إلى أن أفرج عنه هرون الرشيد .

خلافة موسى  
الهادي

وعند ما حضرت المهدي الوفاة كان هرون الرشيد حاضراً بجانبه فأعلن في الحال خلافة موسى الهادي بمقتضى الوصية وحلف له يمين الطاعة كما بث إليه بالخاتم وقضيب النبي والبردة . وكان الهادي قد ناهز الرابعة والعشرين حينما اعتلى كرسى الخلافة ، ولكن مدة حكمه لم تزد على سنتين ، وكان صعب المراس

(١) باستيل العباسيين .

قاسى القلب شرس الأخلاق ، بيد أنه كان برغم ذلك شجاعاً جواداً سخياً نشطاً محباً للعلم ، مكرماً للأدباء .

ويقول الرواة إن الهادى لم يقدر إخلاص أخيه له فاجتهد فى خلال مدة حكمه أن يغير وصية أبيه بأن يجعل ولاية العهد لابنه جعفر ، فزج يحيى بن خالد البرمكى مستشار هرون الرشيد فى السجن مع بعض أعوان أخيه المخلصين بدعوى أنهم خصومه السياسيين ، كذلك كان قد نشب خلاف بينه وبين أمه التى أرادت أن يكون لها نفس النفوذ الذى كانت تتمتع به فى عهد زوجها ، فقاوم الهادى تدخلها بكل قواه ، وأعلن للأشراف عدم رضائه على زيارتهم لهم ، وعلى هذا اتقسم رجال البلاط إلى حزينين : انحاز أحدهما إلى الخليفة الشاب وابنه وانحاز الحزب الآخر إلى الرشيد والملكة الوالدة ، وقد حاول هرون الرشيد بكل الوسائل الممكنة أن يهدئ من ثورة أخيه . ولكنه عمل أخيراً بمشورة يحيى وترك البلاط حفظاً على سلامته .

وفى ذلك الحين أخذ حاكم المدينة يسوم بعض أفراد أسرة « الحسن » صنوف العذاب ، ملصقاً بهم كذباً تهمة معاورة الخمر مما أدى إلى نشوب فتنة قام على رأسها الحسين<sup>(١)</sup> أحد أحفاد الحسن الأول ، فقتل فيها كثير من أفراد أسرته وبعض الأسرات الأخرى المشهورة ، وفر على أثرها « إدريس »<sup>(٢)</sup> ابن عم الحسين إلى تلمسان ، حيث التحق بالبربر الذين ساعدوه على تأسيس الدولة الأدرسية المشهورة التى استقلت فيما بعد ببلاد المغرب الأقصى .

وبينما كان الهادى مقيماً فى بلدة « عيسى أباد » التى كانت من بغداد على مسيرة يوم واحد مرض مرضاً شديداً ، فبعث يطلب أمه « الخيزران » ، ولما

٧٧٥-٧٨٦ م

(١) الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

(٢) أخو النفس الزكية .

حضرت خاطبها بقوله : « أنا هالك في هذه الليلة وفيها لي أخى هررون ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبه سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ؛ ولم أكن بك عاقبا بل كنت لك صائناً وبرا واصلاً . ثم قضى نجبه واضعاً يدها على صدره في ١٥ ربيع الأول<sup>(١)</sup> . وكان طويل القامة كأبيه وله سبعة أولاد وبناتان إحداهما أم عيسى التي تزوجت من المأمون بن هررون الرشيد .

وفاة الهادي  
يوم الخميس ١٥  
ربيع الأول  
٧٨٦هـ / ١٧٠م

---

(١) السمودي :